المحاضرة السابعة

(البابوية)

ظهورها وتطورها

منذ ايام المسيحية الأولى ، ظهر تنظيم ديني متميز عرف بالكنيسة (Eccclesia) وعرف أولئك الذين يديرون ذلك التنظيم ويشرفون على اداء الطقوس والشعائر الدينية برجال الدين (الاكليرس) تمييزا لهم عن عامة المسيحيين . وكان تلامذة السيد المسيح الأوائل (الحواريون) الاثنا عشر ، بطبيعة الحال ، هم الاساس لفئة الاكليرس وصار خلفاء الحواريين يعرفون بالاساقفة (efiscopi) ولما كانت الجماعات المسيحية الأولى تقيم في المدن ، فقد صارت المدينة هي المقر للاسقف . ويشرف الاسقف على الشؤون الكنسية والدينية في المدينة التي يقيم فيها . واطلق على الوحدة الادارية الدينية التي يشرف عليها الاسقف اسم (الاسقفية) (diocese)

وما يوجد من كنائس في نطاق كل اسقفية يشرف عليها ما يعرفون بالقسس (Priests) ويساعد القسس في ادارة مهام كنائسهم فريق آخر من رجال الدين يعرفون بالشمامة (deacons) وهؤلاء لا يقومون بممارسة الطقوس والشعائر الدينية ولكنهم يتولون امورا وخدمات اخرى مثل تنظيف الكنائس وتوزيع الهبات .

وتمتعت المدن التي قام الحواريون بتأسيس كنائسها بمنزلة خاصة في العالم المسيحي . وتأتي روما في المقدمة في هذا المجال. فقد فاقت هذه المدينة ما سواها سمواً ورفعة . وكان لذلك اسباب عدة منها ان كلا من القديس بطرس والقديس بولص قد شرفا المدينة بزيارتهما لها . والاول قام بتشييد كنيستها الاولى وتقول الروايات المسيحية ان هذين القديسين قد استشهدوا فيها . كما ان هناك اشارة في الكتاب المقدس (انجيل متي ، الاصحاح السادس عشر) الى ان السيد المسيح قد اشار الى القديس بطرس كرئيس للحواريين . والاساقفة هم خلفاء الحواريين فمن الطبيعي ان يكون اسقف روما ، وهو خليفة القديس بطرس ، رئيسا لبقية الأساقفة .

وبعد اخذ تلك الجوانب والروايات الدينية بنظر الاعتبار فقد كان للجوانب السياسية والواقعية ايضا دور مهم في رفع منزلة روما الى تلك الدرجة السامية . فقد كانت روما عند ظهور المسيحية وعند بدء انتشارها . العاصمة الوحيدة للامبراطورية الرومانية العظيمة المترامية ، بل كانت اهم واكبر واغنى مدينة في العالم اجمع.

البابوية في عهودها الأولى – عهد الاضطهاد

وظهر هذا الاحساس بعلو منزلة اسقف روما واضحا منذ عهود المسيحية الأولى ، بل وفي عهد اضطهاد المسيحيين ، فاسقف روما القديس كلمنت الاول (100 – 91) يتدخل في شؤون اسقفية كورنته تدخل صاحب السلطان العام وتدل الرسالة الاولى التي وجهها كلمنت الى الكورنثيين (عام ٩٦ م) دلالة واضحة على الشعور بالسيادة والزعامة . اذ يقول القديس كلمنت فيها ان النظام هو القانون الكوني ، وكما انه اساس الطبيعة الظاهر للعيان ، فهو كذلك اساس المجتمع المسيحي وينبغي على المؤمنين الالتزام بالنظام والطاعة لمن هم اعلى منهم مرتبة . وكما ان المسيح جاء من الله ، جاء الحواريون من المسيح ، وهؤلاء بدورهم عينوا اتباعهم الأولين من بعدهم ليكونوا اساقفة وقساوسة للمسيحيين ومن هذا يصبح ضروريا ان تتجنب كنيسة كرنثة التنازع وان تخضع لرجال الكنيسة المعينين بموجب القواعد المرعية ، لانهم يمثلون المثل المسيحية والسلطة الالهية الصحيحة. وفي منتصف القرن الثالث تحدى بعض الاساقفة في شمال افريقيا سلطة اسقف روما وسيادته ، فما كان من اسقف قرطاجنة الا واصدر في عام ٢٥٨ رسالة بعنوان حول وحدة الكنيسة اكد فيها ضرورة الاعتراف بسيادة اسقف روما ، وضرورة وحدة الكنيسة . فالكنيسة كما قال يجب ان تكون كاثوليكية – ومعنى كاثوليكية عالمية شاملة – والواقع انه حتى تلك الأيام الغابرة كان هناك شبه اجماع بين المسيحيين عن وحدة الكنيسة . ولا تكون الكنيسة موحدة دون ان تكون لها سلطة عليا واحدة تستطيع تجسيد الوحدة وتوجيهها.

البابوية خلال القرنين الرابع والخامس

لعل اهم التطورات بالنسبة للكنيسة المسيحية خلال فترة انحطاط الامبراطورية الرومانية هو ارتفاع منزلة اسقف روما (وقد صار يعرف منذ القرن الرابع بالبابا) في المجالين الديني والدنيوي. لقد لاحظنا سمو منزلة خلفاء القديس بطرس على غيرهم من الاساقفة في عهد الاضطهاد ، اما بعد ذلك وفي فترة انحطاط الامبراطورية الرومانية وضعفها ، فقد احتفظ البابا بتلك المنزلة السامية ، بل ان سيادته على بقية الاساقفة ، قد نمت وتبلورت واصبحت امرا ثابتا ومعترفا به من الجميع . وتبدو السيادة البابوية واضحة في كثير من المجالات. منها الاجراءات التي اتخذت لمناهضة الهرطقة . فمع ان اغلب الحركات الهرطقية في عهد المسيحية الأولى قد ظهرت في الشرق (كالاريوسية والمنو فستية) وهي على هذا الاساس تمثل مشكلات للاساقفة الشرقيين بالدرجة الاولى : ومع ان المجاميع الدينية العامة السبعة الاولى عقدت كلها في الشرق ، فقد لعبت روما دورا قياديا في تلك المجامع التي قامت بدور مهم في تعريف العقيدة الكاثولوكية و في تحديد مضامينها . ففي مجمع (نيقية

Nicoca ٣٢٥) اخذ بتفسير روما لطبيعة الاب والابن وكان قد حضر المجمع قسيسان يمثلان البابا ومن المرجح ان يكون هو سيوس اسقف قرطبة الذي ترأس معظم جلسات المجمع هو الآخر مندوبا للبابا ايضا.

وفي مجمع خلقدونيا عام ٤٦١ ، عندما عجز الاساقفة المجتمعون عن التوصل الى اتفاق يرضي الجميع ، اصدر البابا ليو الاول رسالته الشهيرة ألرساله Tome التي انهت الجدل بتأكيدها العقيدة القائلة بان للسيد المسيح طبيعتين بشرية وسماوية ضمتهما شخصية قدسية واحدة وبهذا انكر على المنوفستين عقيدتهم القائلة .

الطبيعة الالهية الواحدة للسيد المسيح . وهكذا اثبتت البابوية زعامتها مره اخرى.

وفي المجال الاداري ، يلاحظ ان روما نجحت هنا ايضا في فرض نوع من السيادة الادارية على بقية الكنائس ، علما بان الفوضى السياسية التي سادت الغرب في القرنين الخامس والسادس ، حالت دون ظهور السيادة وتبلورها بشكل واضح .اذ ان انعدام الاستقرار وصعوبة المواصلات حالا دون الاتصال بين روما وبقية الكنائس في اوربا . فبعد تلك الوحدة السياسية المتماسكة التي كانت تتمتع بها اوربا في ظل الامبراطورية الرومانية ظهرت هناك بعد سقوط روما خمس دول جرمانية ، ولفترة من الزمن كانت اربع منها يحكمها حكام يؤمنون بالعقيدة الاريوسية ، والاكثر من هذا ، فان الاساقفة الذين كانوا ينتخبون عادة من قبل رجال الدين وسكان المدينة صاروا الآن ، خلال القرنين السادس والسابع، غالبا ما يعينون من قبل الملوك الجرمان وفي ظروف كهذه من الصعب بطبيعة الحال ظهور سلطة بابوية ادارية فعالة يمارسها البابا على بقية الكنائس في الغرب . ومع هذا ظهرت السلطة في مجالات خاصة ، فقد احتفظت روما بشكل أو بآخر بنوع من الصلة مع بقية كنائس الغرب . واعتادت تلك الكنائس الرجوع الى روما في امور معينة في مقدمتها تحديد موعد عيد الفصح ومع ما تبدو عليه هذه القضية من صغر ، فان رجوع كنائس الغرب كلها الى روما بشأنها قد اعطى مؤثرا باعتراف تلك الكنائس بزعامة روما . ثم ان المبشرين الارلنديين والسكسون الذين قاموا بجهود متميزة في نشر العقيدة الكاثوليكية خلال القرنين الخامس والسادس بين الفرنجة وغيرهم من القبائل الجرمانية في القارة الاوربية كانوا على صلة بالبابا ، بل انه هو الذي شجع معظمهم للقيام بذلك التبشير ، وهذا مظهر آخر من مظاهر زعامة روما والبابوية.

ولا يقل دور البابوات في التشريع الكنسي عما ذكر اهمية فقد اعتاد البابا خلال تلك الحقبة من الزمن اصدار التشريعات البابوية (decretals) وصارت تلك التشريعات والاوامر البابوية مصدرا مهما من مصادر القانون الكنسي (Con on Law) متممة بذلك تشريعات واوامر المجامع الكنسية.

علاقة البابا بالقسطنطينية

مما لا شك فيه ان الاهمية السياسية والاقتصادية لاية مدينة مسيحية كانت تحدد مكانتها الدينية . وعلى هذا الاساس احتلت العاصمة الجديدة القسطنطينية منزلة بالغة الأهمية من الناحية الدينية ، علما انها مدينة جديدة لم تكن قد شرفها احد الحواريين بزيارته لها ولم يقم احد منهم بتأسيس اسقفيتها .

على اية حال فقد وضعها مجمع القسطنطينية الديني العام ٣٨١ في المقام الثاني بعد روما ، وأوجد المبرر الشرعي لذلك ، حيث قرر ان القسطنطينية هي روما الجديدة . وفي الوقت الذي اعترف فيه بطريق القسطنطينية بسيادة اسقف روما ، خليفة القديس بطرس ، فانه ادعى لنفسه ، في الوقت ذاته ، السيادة على جميع كنائس الشرق . واعترفت الكنائس الشرقية بسيادة القسطنطينية عليها . ولم تواجه القسطنطينية تحديا في ذلك سوى من كنيسة الاسكندرية وذلك ان مصر تمتعت دائما بمنزلة فريدة في الامبراطورية الرومانية وصلت الى حد الاستقلال الذاتي . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ، فان جهود الاسكندرية بقيادة (اثناسيوس Athanasius) في محاربة الاريوسية زاد من مكانتها وهيبتها . ومع كل هذا فما ان حل القرن الخامس الا وثبتت القسطنطينية سيادتها الكاملة على الكنائس الشرقية كلها. وهكذا فان سيادة البابا على الكنائس الشرقية ، كانت سيادة غير مباشرة جات عن طريق سيادته على بطريق القسطنطينية . ولم يكن هذا بدوره مستقلا وذلك بسبب تدخل الحكومة الامبراطورية المستمر في شؤونه ، حتى في القضايا الدينية البحتة . والعلاقة بين البابا والامبراطورية لها اهمية بالغة في التاريخ الأوربي في تلك المرحلة . فالخلافات بين رئيس السلطة الدينية ورئيس السلطة الزمنية كانت قد ظهرت منذ الايام الاولى من الاعتراف بالمسيحية . اذ سرعان ما وجدت الكنيسة ان تحمس الاباطرة للدين الجديد وحمايتهم للكنيسة لم يكن يخلو من متاعب . لقد اجتمع مجمع نيقية الديني العام بدعوة من الامبراطور قسطنطين ، وهو الذي قرر بنفسه جدول المسائل التي نوقشت فيه ، وصادق على قراراته. واعتبر جستنيان نفسه الرئيس الاعلى للكنيسة ، ومن حسن حظ الكنيسة ان جستنيان بالذات كان غيورا على الكنيسة متحمسا لوحدتها ، ولذا نراه لا يبخل " البابا بتأييده المطلق ، ومع كل هذا وحتى بالنسبة الى هذا الامبراطور الصديق، بان العلاقات بينه وبين البابا لم تكن تخلو من البرود والتوتر في بعض الاحيان خاصة عندما حاول الامبراطور مهادنة الهراطقة الاريوسيين وغيرهم. والواقع ان البابا (فجليوس كان سجينا في القسطنطينية لعدة سنوات بسبب خلافاته مع الامبراطور جستنيان. وعندما اعيدت سلطة الامبراطور البيزنطي الى ايطاليا نتيجة لفتوحات جستنيان استمرت الخلافات بل تفاقمت . والحقيقة ان الاباطرة البيزنطيين كانوا يحسدون البابا ويحاولون الحد من نفوذه بكل الوسائل الممكنة لديهم . من ذلك تحريضهم اسقف رافينا وبقية الاساقفة وتشجيعهم على تحدى سلطانة . كما شجعوا

بعض الهراطقة وبخاصة المنوفستيين . وعندما لم يجد كل ذلك نفعا لجأوا الى تعزيز موقف بطريق القسطنطينية ودفعه الى تحدى البابا ومعاداته .

وتطور خلاف خطير بين روما والقسطنطينية في اوائل القرن الثامن ، وكان لظهور الاسلام صلة بذلك فقد عاب المسلمون على المسيحيين تعلقهم بالصور والتماثيل وافراطهم في تكريم القديسيين الى درجة بلغت حد العبادة . فظهرت اتجاهات جديدة لدى المسيحيين في الشرق ، تهدف الى الحد من التعلق بالصور والتماثيل والاعتدال في تكريم القديسيين وعرف دعاة هذا الاتجاه بمحظمي التماثيل والصور (اللا ايقونيين) ونال هؤلاء تأييد بعض الاباطرة خاصة ليو الايسورى (٧١٤ – ٧٤١) . لقد نشات ازمة دينية خطيرة ، فالكنيسة الشرقية نفسها انقسمت و نشب صراع بين الايقونيين واللا ايقونيين . وبينما نال الاخيرون تأييد الامبراطور ، حظي الايقونيون بمساندة بطريق القسطنطينية ، ولم يستمر الصراع طويلا فقد انتصر الايقونيون وخرجوا ظافرين. ومع ان الحركة اللا ايقونية لم تؤثر بشكل مباشر في الكنيسة الغربية فان البابا بصفته الرئيس الأعلى للكنيسة المسيحية كلها وقف الى جانب بطريق القسطنطينية ودافع بحماس عن احترام القديسين ودعا الى الابقاء على الصور والتماثيل وعلى اية حال فان سياسة ليو الايسوري ادت الى توتر خطير في العلاقات بين البابا والامبراطور.

فان البابا غريغوري الثاني (٧١٥ – ٧٣١) تحدى ليو الثالث الايسوري (٧١٧ – ٧٤٠) وشجع الايطاليين على تجاهل قراراته. وقد تركت المشكلة اثارها في توتر العلاقات بين شقي العالم المسيحي لقرون عديدة لاحقة. والانفصال السياسي بين الاقاليم الشرقية والاقاليم الغربية ادى بصورة تدريجية الى نوع من الانفصال الديني كذلك . والحقيقة كانت هناك خلافات عقائدي وغير عقائدية منذ البداية بين المسيحيين في الشرق والمسيحيين الغربيين ، فقد كان المسيحيون في الشرق يستعملون اللغة الاغريقية في اداء المراسيم الدينية ، بينما استعمل المسيحيون الغربيون اللغة اللاتينية في تلك المراسيم . ثم ان الرقي الثقافي والرخاء الاقتصادي في الشرق دفع السكان الى اعتبار الغرب متوحشا ومتخلفا . رفض عدد من بطارقة القسطنطينية الخضوع لروما المدينة المهجورة والفقيرة وهم يعيشون في تلك المدن الشرقية العامرة بالسكان والمرفهة اقتصاديا . وهكذا يلاحظ انه على الرغم من احتجاجات البابا المستمرة استعمل بطريق القسطنطينية لقب البطريق العام.

وفي خلال القرنين السابع والثامن اتسعت الشقة بين القسطنطينية وروما . ومع هذا وعلى الرغم من التباين الاقتصادي والثقافي ، استمرت وحدة الكنيسة المسيحية وقد حدث هذا الانفصال في وقت لاحق . والحقيقة كان هناك ما لا يقل عن ستة بابوات من اصل شرقي بين عام (٦٥٠ – ٧٥٠) ولكن في هذه الفترة ايضا تعرضت

سيادة البابا على القسطنطينية المعوقات كثيرة منها زيادة الفروق الثقافية والاقتصادية بين الشرق والغرب ، وطموح بعض بطارقة القسطنطينية ورغبتهم في الاستقلال عن روما ، وتدخل الاباطرة المستمر في الشؤون الدينية .

المسؤليات الجديدة للبابوية :

صحب اعتراف الحكومة الامبراطورية بالمسيحية زيادة كبيرة في الواجبات والمسؤوليات الملقاة على عاتق البابا والاساقفة . فقد دخل الناس في الدين الجديد افرادا وافواجا. يحدو اغلبهم الامل في الاستفادة من الوضع الجديد ، اكثر ما يحدوهم الايمان والعقيدة . على اية حال كان الامر يتطلب زيادة في بناء الكنائس وفي تقديم المواعظ والارشاد . وانهالت الهبات على الكنيسة ممن يرجون الثواب ويخشون العقاب من المؤمنين . فكان على البابا والاساقفة استثمار الاموال بالشكل الافضل وتوزيع الاعانات والصدقات على المستحقين . ومنذ اوائل القرن الخامس صارت الحكومة الامبراطورية في ايطاليا شبه مشلولة ، عاجزة عن تقديم الخدمات للناس فتولت الكنيسة جزءا مهما من تلك المسؤولية فبنت المستشفيات واقامت المياتم ومارست القضاء وساعدت منكوبي الكوارث الطبيعية والحروب كالطاعون والفيضانات والقحط وضحايا غزوات الجرمان والهون . والقيام بكل هذه المسؤوليات والمهام زاد من اهمية البابا والاساقفة وعزز مكانتهم وهيبتهم . وقد صار الاسقف اهم شخص في المدينة خلال القرنين الرابع والخامس . ولعل المنزلة الرفيعة التي كان يحتلها تبرر العبارة التي شاعت في تلك الفترة وهي الاساقفة الملوك. بالاضافة الى كل ما سبق فقد وضعت خلال القرنين المذكورين اسس السلطة الزمنية للبابوات ، تلك السلطة التي قدر لها ان تلعب دورا مهما خلال القرون الوسطى . فقد ترك انهيار السلطة الامبراطورية في الغرب فراغا كان لابد ان يملأ بشكل من الاشكال . ونظرا للهيبة والمنزلة الرفيعتين التي كان يتمتع بها البابوات ، فقد نظر اليهم الناس كرمز حقيقي للسلطة والحماية . فالبابا ليو الاول الكبير هو الذي خرج عام ٤٥٣ المقابلة اتيلا لاقناعه بالانصراف عن روما ، في حين لم يفعل الامبراطور شيئاً.

ومنذ ان تم الاعتراف بالديانة المسيحية عام ٣١٣ ، حصلت الكنيسة عن طريق الهبات على اراضي شاسعة بالقرب من روما ، وقد اطلق عليها اسم (اوقاف القديس بطرس) . ثم حصلت على اراضي اخرى في صقليا وسردينيا واماكن اخرى من ايطاليا . وعندما انهارت سلطة الحكومة تماما ، رأى البابا نفسه يتحمل مسؤولية الحكم في هذه المناطق . وصارت هذه الحالة اكثر وضوحاً بعد الغزوات اللمباردية حيث عمت الفوضى ولم تعد في اغلب اجزاء ايطالية سلطة حكومية من أي نوع.